﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزّخرف: 70 - 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

في تفصيل جزاء المتَّقين ترغيبٌ لغيرهم في اللّحاق بهم

لمّا ذكر في الآية السّابقة ما لِعباده المتَّقين من البشارة لهم بالأمن التّامِّ يوم الفزع الأكبر، وكان قد أورَد ذلك على وجْهٍ في إجمال؛ بيَّن هنا تفصيل ذلك والكَيْفيّات الَّتي يحصل بها وأمْثِلَتَه في التَّكريم والنَّعيم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: أصل (حبر) يدلُّ على الأثر في حُسنٍ وبهاء[2]، ومنه الحِبْرُ: الأثر المستحسَن[3]، والحِبْرُ: الَّذي يُكتَب به[4]؛ لوقوعه بالحُسْن في الخَطِّ والكتابة، والحَبْرُ والحُبور والحَبْرة: السُّرور[5]، وقوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: تُسَرّون سرورًا يظهر حِبارُه - أي: أثرُه - على وجوهكم[6]، أي: بسبب ما هم فيه من الإكرام والنَّعيم والسَّعادة[7].

2) ﴿بِصِحَافٖ﴾: أصل (صحف) يدلُّ على انبساطٍ في شيءٍ وسَعة[8]، والصِّحاف: جمع صَحْفَة، وهي القَصْعة العريضة في الطَّعام، خاطبهم الله بما يألفون، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾[9]، قال الكسائيُّ: أعظم القِصاع الجَفْنة، ثمَّ القَصعة -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 477.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبر).
(3) الراغب، المفردات: (حبر).
(4) الجوهري، الصحاح: (حبر).
(5) الجوهري، الصحاح: (حبر).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 340، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 281.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 238.
(8) ابن فارس، المقاييس: (صحف).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (صحف).

تليها – تُشبع العشرة، ثمَّ الصَّحْفة تُشبع الخمسة، ثمّ المِئْكلة تُشبع الرَّجُلين والثَّلاثة، ثمَّ الصُّحَيفة تُشبع الرَّجُل[1].

3) ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: الأكواب: جمع (كوْب)، وهو القدح أو الإناء أو الكوز الَّذي لا عروةَ له، أي: لا أُذُن له، وهي الحلْقَةُ البارزةُ في جانبِه يُمْسَك منها، فلا مقابِض لها، وقيل: لا خرطوم له كذلك، فإن كان له؛ فهو إبريق، وقيل: هو ما كان مستدير الرَّأس، مع ما مرَّ من الأوصاف[2].

4) ﴿تَشْتَهِيهِ﴾: أصل الشَّهْوَةِ نزوعُ النَّفس إلى ما تريده، وذلك في الدُّنيا ضربان: صادقة، وكاذبة، فالصّادقة: ما يختلُّ البدن من دونه كشهوة الطَّعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه، وقد يسمّى المُشتَهى شهوة، وقد يقال للقوَّة الَّتي تَشتَهي الشَّيء: شهوة[3]، وشَهِيَ الشَّيءَ، وشَهاهُ يَشهاهُ شَهوَةً واشتَهاهُ وتَشَهّاهُ: أحَبَّه، ورَغِب فيه[4]، وقوله: ﴿تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾: ترغبه، وتحبُّه وتنزِع إلى طلبه من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة وغيرها كائنًا ما كان[5]، واللّٰه يخلق في أهل الجنَّة الشَّهوات اللائقة بعالم الخلود والسُّموِّ[6].

5) ﴿وَتَلَذُّ﴾: أصل (لذَّ) يدلُّ على استطابةِ الحواسِّ للشَّيء[7]، واللَّذَّة: نَقِيضُ الألم، واحِدَةُ اللَّذّاتِ، ولَذِذْتُ الشَّيءَ بِالكسرِ لَذاذًا ولَذاذَةً، أي: وجَدْتُهُ لَذيذًا[8]، ومعنى: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، أي: تستحسنه الأعين، وتستطيبه، وترتاح له بمشاهدته[9]، ولذَّة الأعين في رؤية الأشكال الحسنة والألوان الَّتي تنشرح لها النَّفس، فلذَّة الأعين وسيلة للذَّة النُّفوس[10].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، والقاموس المحيط: (صحف).
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسمين، عمدة الحفاظ: (كوب)، والفراء، معاني القرآن: 3/ 37، و123، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 644، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 63.
(3) الراغب، المفردات: (شها).
(4) ابن منظور، اللسان: (شها).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 479، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 373.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.
(7) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لذذ).
(8) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (لذذ).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 96.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صحافُ الجنَّة وأكوابها مليئةٌ بما لـذَّ وطاب مـن الـطَّـعـام والشَّراب

تخبرنا الآيات أنَّه بعد أن يجتمع المؤمنون على هذا النِّداء الكريم من ربِّهم لهم، يدعوهم الله ﷻ إلى ضيافته في الجنَّة، فيُقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾؛ إذ تَلقَون المسرَّة والحبور مع أزواجكم اللّاتي آمَنَّ معكم، فيكتمِل أنسُكم، ويتِمُّ نعيمُكم[1]، ثم بيَّن - سبحانه - مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد، بعد أن يدخلوا الجنَّة، ويستقرّوا فيها[2]، بأنَّه يُطاف بالخِدمةِ عليهم في الجنَّة بأوانٍ واسعةٍ من ذهبٍ مليئةٍ بالأطعمة، ويُطاف عليهم بالشَّراب في أكوابٍ نحو ذلك، وفي هذه الأواني والأكواب - خصوصًا - من الأطعمة والأشربة، وفي الجنَّة لهم - عمومًا - من سائر صنوف النَّعيم، ما تشتهيه أنفسُهم، وتُسَرُّ به أعينُهم، وهم ماكثون فيها أبدًا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ ممّا قبلها:

الإذنُ بدخول الجنَّة يلزم عنه نفي الخوف والحزن

جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استئناف بيانيٌّ في حيّز النِّداء في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[4]، فكأنَّه قيل: فماذا يُقال لهم بعد أن نودوا بالأمان التّامِّ؟ فأجيب: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فجاءت جملة الأمر الإكراميِّ جوابًا عن سؤال مقدَّر، يطرأ في الذِّهن بعد سماع النِّداء الأوَّل، فجملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي البيان العمليُّ لِما في جملة النِّداء: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ من البُشرى ووعد الأمان، ويصحُّ أن تكون جملة الأمر: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ متَّصلة بحيِّز النِّداء على جهة التَّعليل المعنويِّ له، كأنَّه ناداهم بنفي الخوف والحزن عنهم؛ لأنَّهم مأذون لهم في دخول

(1) الخطيب، التفسير القرآني، للقرآن: 13/ 161.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 99.
(3) مجمع الملك فهد، الميسر في التفسير.
(4) صافي، الجدول: 13/ 106.

الجنَّة، فبسبب هذا الإذن بدخول دار السَّلام ناداهم بأنَّهم سالِمون من الخوف والحزن.

بلاغةُ الانتقالِ من النِّداء إلى الأمر:

تبدأ الضّيافة بالتَّحيّات، ثمَّ ينتقلون للإقامة في دار السَّلام

الانتقال من النِّداء القوليِّ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إلى الأمر الفعليِّ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هو تدرُّجٌ منطقيٌّ ضروريٌّ من تحيَّتهم بالقول في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٩﴾ – وهو في معنى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: 44] – إلى إنجاز إقامتهم وضيافتهم في دار السَّلام بالإذْن لهم فيها في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، وهذا في معنى قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ۝٤٤﴾ [الأحزاب: 44]، فحيّاهم أوَّلًا، ثمَّ وطَّنَهم فيما أعدَّه لهم ثانيًا، فالآية الأولى من قبيل تحيَّة الضَّيف والتَّرحيب به، والثّانية تحليته بالضّيافة والإذن له فيها، كمن يقول لضيوفه: تفضَّلوا بالدُّخول بعد أنِ استدعاهم، وقرَّبهم، إذًا فالانتقال من النِّداء إلى الأمر ليس – فقط – تدرُّجًا من رتبة النِّداء بالبشرى إلى رتبة الإذنِ لهم بمعايشتها، بل هو استكمالٌ ضروريٌّ للمعنى، بحيث يكون دخول الجنَّة هو غاية منطقيَّة ضروريَّة لندائهم بالأمان.

معنى الأمر في: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

لا يسمع أهل الجنَّة إلّا خطاب السَّلام والقول الطَّيّب

الأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أمْرُ إذْنٍ وتكريم، لا أمْر تكليفٍ وإيجاب، فأسلوب الخطاب هنا إكراميٌّ لا تكليفيٌّ، وكأنَّه إجازةُ عبورٍ، وتصريح دخول، دون عارضٍ أو عائق.

يُقادُ أهل الجنَّة إليها إسراعًا بهم إلى مأوى النَّعيم والخلود

ومن قرائن التَّكريم البديعة هنا مجيء الإذن بدخول الجنَّة فورًا، بمجرَّد ندائهم بالأمان في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فتعقيب الأمر بعد النِّداء بلا فاصلٍ ولا حاجز بينهما يدلُّ على سرعة إكرامهم بعد تمهيد نفوسهم وطمأنتها وتهيئتها بنداء الأمْنِ، فهذا الانتقالُ السَّريع من الطَّمأنة إلى التَّكريم يُشعر المخاطَبين،

وكأنَّهم يُقادون إلى النَّعيم مباشرةً بلا أيِّ فاصل زمنيٍّ، أو مرحلةٍ انتقاليَّة، فكأنَّهم يدخلون الجنَّة في موكبٍ من بشارةِ النِّداء الإلهيِّ المتزامِن معه، وفي ذلك إفصاحٌ عن سرعة إيصالهم إلى النَّعيم دون انقطاعٍ أو فجوة، كما يوحِي ذلك التَّعقيب السَّريع بين النِّداء والأمر بعدم حصول انتظارٍ منهم أو ترقُّب، فلا يتركهم بعد ندائهم يتشوَّفون إلى ما سيحصل لهم، فلا يوجد تشويقٌ مُقْلِقٌ هنا؛ لأنَّ الشَّوقَ والتَّرقُّب ينطويان على مزيجٍ مختلطٍ من الرَّهبةِ والرَّغبة، وقد انتفى عنهم الخوفُ كلُّه، فلا يصيبهم شيءٌ منه، ولو كان جُزءًا من شَوق.

دلالةُ الحاليَّة في: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾:

جملة: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ حال من فاعل ﴿ٱدْخُلُواْ﴾[1]، أي: إنَّهم يدخلون الجنَّة في حال كونهم مُحَبَّرين، أي: في حالةِ السُّرور والنَّعيم والتَّكريم[2]، وهذه الجملة حاليَّة؛ لدلالتها على حالهم أثناء دخولهم، فالمعنى: لا تدخلون الجنَّة، ثمَّ تُحبَرون لاحقًا، بل أنتم تدخلونها، وأنتم في حالة الحبور أصلًا، فالحبور وصفٌ لحالتهم أثناء الدُّخول نفسه، فهو ملازمٌ لهم من لحظة دخولهم.

أهـلُ الـجنَّـة لا ينفكّون عن حال السُّرور والحبور حتّى من قبل أن يدخلوها

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة، وتأخير الفعل:

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أصالةِ تلك الحال فيهم ودوامها معهم ولزومها لهم.

التَّركيبُ الاسميُّ يعكس هدوء النَّعيم وثبات السَّعادة واستقرارها

ولذلك لم يقل: (تحبرون أنتم وأزواجكم) بتقديم الفعل، بل قال: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، والفرق بين التَّركيبين: أنَّ تقديم الضَّمير ﴿أَنتُمْ﴾ مع العطف بالواو ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، ثمَّ الجملة الفعليَّة ﴿تُحْبَرُونَ﴾ يوحِي بأنَّ الجماعة كلَّها مشترِكَةٌ في هذا النَّعيم كوحدةٍ

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 478.

ودُفعة واحدة، أي: إنَّ الحبور يشمل الجميع في آنٍ واحد، أمّا إذا جاء الفعل في البداية، ثمَّ تأخَّر الفاعل: (تحبرون أنتم وأزواجكم)، فهذا التَّرتيب قد يوهِم بأنَّ الحبور يبدأ بهم، ثم يشمل الأزواج، فيُفهَم منه عدمُ الدُّخول الجماعيِّ المتساوي في النَّعيم.

وأيضًا تقديم ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ قبل الفعل ﴿تُحْبَرُونَ﴾ يجعل الاهتمام منصبًّا على المخاطَبين أنفسِهم، فيدلُّ على معنى أنَّ النَّعيم مُخصَّصٌ لهم شخصيًّا قبل وصف حالتهم بالحبور، ففي تقديمهم تكريمٌ لهم، وتنبيهٌ على أنَّهم هم المقصودون بالتَّشريف أصلًا دون سائر الخلق، ثمَّ يأتي وصفهم بالحبور كنتيجةٍ بدهيَّة بعد جعلِهم في محلِّ التَّقديم والتَّكريم.

بلاغةُ العطفِ بين كلٍّ من: ﴿أَنتُمْ﴾، و﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾:

عطْفُ أزواجِهم عليهم في الإذن بدخول الجنَّة في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ لاستتمام نعمةِ التَّمتُّع باقتران الزَّوجيَّة والمصاحبة الَّتي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدُّنيا[1]، فهذا العطف يُؤذِن بخلود العلاقة الزَّوجيَّة بين المؤمنين، فلا يدخل أحدٌ الجنَّة وحده، بل مع رفيقه الَّذي كان معه في الدُّنيا، وهذا كناية عن زيادة الأنس والفرح، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ كمال النِّعمة وتمام النَّعيم في اجتماع العائلة؛ إذ لا يشعر أحدٌ بالوحدة أو النَّقص.

من تمام نِعَمِ الله على عبده أن ينعم أهله معه

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾:

إضافةُ الأزواج إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ للاختصاص التّامِّ، فيخرج منهنَّ من لم يؤمن[2]، ومعنى أنَّ الإضافة للاختصاص التّامِّ يعني: أنَّ هذه الإضافة تقييديَّة، وليست مجرَّد إضافةٍ لبيان العلاقة، فـ(أزواجكم) لا تشمل أيَّ زوجة أو زوج

الـزَّوجـيَّـة يـوم القيامة تعتمد على المُناظَرة في الاعتقاد قبل أيِّ اعتبارٍ آخر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.

بإطلاق، بل الَّذين آمنوا معكم فقط، فكلُّ من لم يكن مؤمنًا لا يشمله هذا الوعد، حتّى لو كان زوجًا في الدُّنيا، فالاختصاص التّامُّ، أفاد القصر على فئةٍ معيَّنةٍ في الأزواج دون غيرها.

نكتةُ بناء الفعل ﴿تُحْبَرُونَ﴾ للمفعول:

مصادر الحبور والنَّعيم في الجنَّة لا تُحصَى

جاء الفعل على بناء ما لم يُسمَّ فاعله في قوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ لغرض إظهار النَّعيم دون تعيين مصدره، وذلك لتعظيمه، كأنَّ المعنى: أنتم تُكرَّمون، وتُنعَّمون بأمر عظيم واسع، فكلُّ شيء في الجنَّة مسخَّر لمسرَّتكم، وفي عدم التَّصريح بالفاعل إيحاء بأنَّ تحبيرهم له مصادر متعدِّدة.

بلاغةُ الوقف على الجملة الفعليَّة والابتداء بالاسميَّة:

الحبور حال دائمة لأهل الجنَّة، فلا تهدأ فَوْرتُه بعد دخولهم فيها، كمسرّات الدُّنيا بعد إلْفها

في وجهٍ إعرابيٍّ يجوز الوقف على الجملة الفعليَّة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، على أنَّها جملة مستقلَّة من فعل وفاعل ومفعول، والابتداء بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ على أنَّها جملة مستقلَّة من مبتدأ ﴿أَنتُمْ﴾، ومعطوف عليه ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾، وخبر ﴿تُحْبَرُونَ﴾، وليس على اعتبار كونها حالًا من ضمير ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، كما في الإعراب السّابق[1]، ومن وجوه بلاغة هذا التَّوجيه: إعطاء أمر الدُّخول قوَّة واستقلاليَّة، فعندما نقف على: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، يصبح أمر الدُّخول مستقلًّا وكاملًا في ذاته، ممّا يعطيه هيبةً ووضوحًا، فهذا الوقف يجعل الخطاب كأنَّه تصريحٌ رسميٌّ قاطعٌ بالدُّخول، وكأنَّ الباب قد فُتح لهم تمامًا، دون الحاجة لربطه بالحال بعدها.

ومنه جعْلُ الحبور حقيقة ثابتة قائمة بذاتها، فحين يكون الابتداء بقوله: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ على طريقة الإخبار المُستأنَف

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 237.

بعد الإذن بالدُّخول، يصبح المعنى أنَّ الحبور حالة دائمة لهم بعد الدُّخول، وليس مجرَّد حال لهم في وقت الدُّخول.

ومنه الانتقال من الفعليَّة إلى الاسميَّة؛ لتقرير النَّعيم، فجملة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فعليَّة تفيد الاستقبال وتجدُّدَ الإذن بالدُّخول لكلِّ وافدٍ عليها، والجملة الثّانية اسميَّة: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ تفيد الثُّبوت والدَّيمومة، فتدلُّ على أنَّ وضْعَهم في النَّعيم والحبور دائمٌ وآبِد.

موقعُ: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ ممّا قبلها:

خيرُ ما يُبْتَدَأُ به الضَّيفُ إطعامُه الولائم

جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ استئناف بيانيٌّ[1]، لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهذا الاستئناف جوابٌ ضمنيٌّ عن سؤالٍ مقدَّر بعد الإذن لهم بدخول الجنَّة: فماذا يحصل لهم إذا دخلوها، وهم يُحبَرون؟ أو فكيف فيها يُحبرون؟ والجواب: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، ويصحُّ أن تكون الجملة ﴿يُطَافُ﴾ واقعةً جوابًا لشرطٍ مُقدَّر من جنس جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: إذا دخلوها؛ يطاف عليهم[2].

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُطَافُ﴾ لما لم يسمَّ فاعله:

الـخـدمـة في الجنَّة بلا طلب، والنَّعيم فيها بلا انقطاع

بُني الفعل ﴿يُطَافُ﴾ في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾؛ لِما لم يسمَّ فاعله؛ للعناية بالفعل نفسِه، بصرف النَّظر عن فاعله، وذلك يوحِي بتعظيم فعل التَّكريم، ويجعل خِدمتَهم بالنَّعيم حاصلةً لهم تلقائيًّا من غير سعيٍ منهم ولا طلب، كأنَّ هناك نظامًا كاملًا مُجهَّزًا لخدمتهم؛ إذ لا يُذكر الفاعل؛ لأنَّ الأمر مفروغٌ منه، فالخدمة جزء من طبيعة العيش في الجنَّة، وفي هذا تلويحٌ بالتَّرف المطلق والاسترخاء؛ إذ لا يحتاجون حتّى إلى معرفة من يخدمهم، فالنَّعيم يجري لهم بسلاسة تامَّة.

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.
(2) صافي، الجدول: 13/ 106.

بلاغةُ الالتفاتِ في: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾:

تصويرُ نموذج من النَّعيم بوصفه مشهدًا مستقلًّا؛ لقصد تعظيمه

وعلى كون قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ جملة استئنافٍ بيانيٍّ، يصحُّ أن تكون التفاتًا بالغيبة بعد الخطاب، في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، فلم يقل: (يطاف عليكم)، بل تحوَّل إلى الغيبة: ﴿عَلَيْهِم﴾، ونكتة هذا الالتفات[1]: استدعاء مبدأ الكلام في الحديث عن المتَّقين، فقبل هذا الموضع، كان السّياق يتحدَّث عن المتَّقين بأسلوب الغيبة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فالحديث عنهم كان بصيغة الغائبين، بما يضعهم في موضع تميُّزٍ من غيرهم، فهُم فئة خاصَّة لها شأنها العظيم.

ربْطُ الجزاء بالعمل

ثمَّ جاء الخطاب لهم في ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾، لكن عند ذكر نعيمهم، عاد الأسلوب إلى الغيبة في ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾؛ لربط القارئ بمصدر الكلام وتذكيره به؛ ليستعيدَ التَّركيز على التَّقوى بوصفه مبدأ لاستحقاق النَّعيم، فلو اطَّرد الخطاب (يطاف عليكم بصحاف من ذهب)؛ لربَّما اقتصر الانتباه على مشهد التَّكريم وحده، لكنَّ التَّحوُّل إلى الغيبة يُذكِّر القارئ بأنَّ هؤلاء ليسوا كأيِّ أحد، بل هم المتَّقون الَّذين استحقّوا هذا النَّعيم بسبب سلوكهم وتقواهم، فكأنَّ الالتفات إلى الغيبة يعيد السّامع إلى البداية؛ إذ كان الحديث عن المتَّقين؛ ليربط بين السَّبب والنَّتيجة.

دعوةُ المخاطَب للتَّفكُّر في حاله مقارنةً بأهل الجنَّة

جعْلُ القارئِ في موضع التَّأمُّل المُساءلة من زاويةٍ خارجيَّة بدلًا من موقع المشاركة، فعندما كانت الآية على أسلوب الخطاب، كان يمكن أن يشعر السّامع كأنَّه من المخاطَبين، لكنَّ التَّحوُّل إلى الغيبة في ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ يجعله متأمِّلًا في سبب تفضيل هؤلاء، وهو التَّقوى، كأنَّ الآية تدعوه إلى أن يسأل نفسه: ما الَّذي ميَّز هؤلاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 478.

حتى صاروا في هذا النَّعيم؟ وهل أنا منهم؟ هل أنا من هؤلاء المتَّقين الَّذين يستحقّون هذا النَّعيم؟

فبذلك الالتفات يتحقَّق التَّناغم مع البداية دون كسر السِّياق، فالحديث بدأ عن المتَّقين بأسلوب الغيبة، ثمَّ جاء الخطاب لهم في لحظةِ الدُّخول تكريمًا وتعظيمًا، ثمَّ عاد إلى الغيبة للتَّذكير؛ بسبب هذا الفضل العظيم.

بلاغةُ جملة الاعتراض في: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ ...﴾:

اعـــتراضٌ يـزفُّ البشرى ويُمَثِّل للنَّعيم

يرى ابن عاشور – رحمه الله – أنَّ جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ "معترضة بين أجزاء القول، فليس في ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾ التفات، بل المقام لضمير الغيبة"[1].

فهو يرى أنَّ الجملة معترضة في الكلام؛ بدليل اطِّراد الكلام على الخطاب بعد هذه الجملة في قوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وهو يرى أنَّ الاعتراض هنا يمنع الالتفات، فليس هناك التفات في الجملة من الخطاب في: ﴿تُحْبَرُونَ﴾، إلى الغيبة في: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾؛ لأنَّ الأصل في الاعتراض أنَّه مُقحَمٌ بين أجزاء الكلام، فلا يمنع مِن اطِّرادِه، ولا يقطع وحدةَ أسلوبِه، وليس مقصودًا به التَّحوُّل والانتقال والالتفات في غرض المتكلِّم به؛ لأنَّ الجملة المعترضة دخيلةٌ على الكلام لغرضٍ زائدٍ على أصله، وسيقت جملة الاعتراض هنا بأسلوب الغيبة؛ لأنَّها تُقْحَمُ مسوقةً كما تساق الأخبار، والأصل في الإخبار أن يجري على الغيبة، ولعلَّ هذا هو المراد من قوله: "بل المقام لضمير الغيبة"، ولعلَّه يقصد منه: أنَّ الجملة الاعتراضيَّة المذكورة واقعة على أصل ما استقرَّ عليه المقام، فإنَّ المقام في أصله جارٍ على الغيبة في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.

ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فكما أخبر عن المتَّقين بالغيبة، أخبر هنا عن ضيافتهم بالغيبة في: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، أي: (على المتَّقين).

تقريبُ نعيم الجنَّة بلقطةٍ منه نابضة تفيض بسَعةِ الإكرام

على اعتبار جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ اعتراضيَّة بين مقام الخطاب في: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ... ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فإنَّ لهذا الاعتراض دلالات بلاغيَّة، منها: إبرازُ نعيم الضّيافة بعد دخولهم الجنَّة كأمر مستقلٍّ وعظيم، وكأنَّ قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ لقطةٌ منفصلةٌ تصوِّر جانبًا من أوجه النَّعيم، وهو الضّيافة، فهذا التَّقطيع البلاغيُّ يجعل النَّعيم متتابعًا ومتنوِّعًا، وكأنَّ هناك مفاجآت متوالية من التَّكريم والرَّفاهية.

وفيها إبرازٌ للضّيافة على أنَّها أحد علامات التَّشريف، فالاعتراض بالجملة - هنا - يُشبه تقديمَ مشهدِ ضيافةِ الملوك؛ إذ لا يُترك الدّاخلَ؛ ليكتشف النَّعيم بنفسه، بل يُستقبَل مباشرةً بأعلى درجات التَّكريم، فالجملة المعترضة تقطع سياق الحبور العام في قوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ لتُسلِّط الضَّوء على الضّيافة تحديدًا، وكأنَّها تقول: ومن أنواع الحبور هذا المشهد العظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾.

وفيها التَّخصيص بعد التَّعميم في النَّعيم، فجملة: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ خطابٌ بشمول النَّعيم والحبور في الجنَّة، فتجيء الجملة الاعتراضيَّة لِتخصِّص صورةً حيَّة من ذلك النَّعيم، بذِكْر مِثالٍ رفيعٍ عليه، وهو قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، ففي هذا المِثال الاعتراضيِّ جمْعٌ بين النَّعيم النَّفسيِّ، وهو شعورهم بالحبور، والنَّعيم الحسّيِّ بأتمِّ أنظمة الخدمة وأرفع وسائل الرّاحة، فيتصوَّرُ للقارئِ أهلُ الجنَّة، وهم يُكرَّمون بهذا النَّعيم المنطوي

على الإمتاع الحسّيِّ، بدلًا من الاكتفاء بمجرَّد الإخبار النَّظريِّ عن نعيمهم وحبورهم، وعليه: فالقرآن لا يسرد النَّعيم بأسلوب خِطابيٍّ تقريريٍّ فقط، بل يأخذ المُخاطَبَ في رحلةٍ داخل الجنَّة واقعيَّة، فالجملة المعترضة هنا تعطي إحساسًا بالحركيَّة والتَّفاعل.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ (صِحافٍ) دلالة وصيغة:

الـصِّـحـاف في الجنَّة رمز الوفرة والتَّنوُّع

كلمة (صِحافٍ) هي جمع (صَحْفَة)، وهي قصعة الطَّعام العريضة الواسعة المنبسطة[1]، وهذا التَّعبير يحمل عدَّة دلالات بلاغيَّة تتَّصل بمعنى الإطعام في الجنَّة، فاختيار (صِحاف) يدلُّ على وفرة الطَّعام وكثرته بلا نقصٍ ولا نفاد، وهو ما يتناسب مع صيغة جمع الكثرة (فِعال)، وفي ذلك إلماحٌ إلى سَعةِ كرم المُضيفِ لهم، وهو الرَّحيم الكريم ﷻ، وإلى حفاوة الضّيافة، والإكرام الفائق، وفيه إشارة بديعةٌ إلى أنَّ الطَّعام في الجنَّة يمتنع معه الجوع امتناعًا تامًّا؛ لأنَّه صادرٌ عن ضيافةٍ إلهيَّة راقية ممتلئةٍ بالكرامة والتَّشريف.

والإشارة بـ(الصّحاف) إلى أنَّ طعامَ الجنَّةِ متنوِّعٌ جدًّا، وليس نوعًا واحدًا؛ فالصِّحاف تُستعمل - عادةً - لتقديم أنواع مختلفة من الطَّعام، ممّا يزيد لذَّة النَّعيم، وهذا يتناسب مع ما جاء في الآية بعدها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، أي: إنَّ كلَّ ما يمكن أن يتخيَّله الإنسان من طعام يجده في هذه الصِّحاف.

نكتةُ تقديم الصِّحاف على الأكواب:

تـوافـقُ النَّـعيم الأخـــروي مع العادة البشريَّة

تقديم الصِّحاف على الأكواب في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ لأنَّ العادة تقديم الأكل على الشُّرب[2]، فالطَّعام قبل الشَّراب سنَّةٌ في الدُّنيا والآخرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (صحف).
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 349.

نكتةُ جمع الكثرة في: (صِحافٍ)، وجمع القلَّة في: (أكْوابٍ):

تباين الوظائف بين الصِّحاف والأكواب يؤثِّر في الدَّلالة العدديَّة فيهما

ترتبط الدَّلالة العدديَّة بوظائف الأشياء، ومن هنا جاء (صحاف) على جمع الكثرة، و(أكواب) على القلَّة في قوله: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ لأنَّ أواني الأكل تكون كثيرةً على الموائد بالنِّسبة إلى أواني الشُّرب[1].

معنى ﴿مِّن﴾ في: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾:

فخامةُ وعاء الطَّعام يزيد من تنعُّم الآكِل منه

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ تحتمل أمرين: إمّا ابتدائيَّة، على معنى: (صحافٌ ناشئةٌ من الذَّهب صادرةٌ عنه)، وعلى هذا المعنى فالصِّحاف مصنوعةٌ من الذَّهب الخالص، لا أنَّها مموَّهةٌ به فقط، بل جوهرها الذَّهب، ولذلك لم يقل: (صحاف ذهبيَّة)، بل قال: ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾؛ للإشعار بالخلوص ظاهرًا وباطنًا.

وإمّا بيانيَّة؛ لبيان الجنس، أي: إنَّ مادَّة الصِّحاف من جنس مادَّة الذَّهب، فالذَّهب هو جنس المعدِن أو المادَّة المصنوع منه الصِّحاف، وعلى هذا المعنى يتبيَّن أنَّ الصِّحاف وأواني الجنَّة منحوتةٌ مصنوعة من أخصِّ المعادن وأثمنها.

دلالةُ جعل الصِّحاف مِن ﴿ذَهَبٍ﴾:

الذَّهبُ في الجنَّة رمز التَّشريف والرِّفعة

ذِكرُ الذَّهب في وصف أواني الطَّعام في الجنَّة يدلُّ صراحةً على عظمة التَّكريم ورفعة الشَّأن، فالذَّهب في العُرف البشري أثمن المعادن وأغلاها، ولا يُستعمل إلّا في المقامات الفاخرة والمترَفَة، فجعْلُ الصِّحافِ من ذهب يوحي بأنَّ النَّعيم في الجنَّة بلغ أعلى درجات الفخامة والكرامة.

وفيه مبالغة في النَّعيم والمتعة الحسّيَّة البصريَّة، فلم يقتصر النَّعيم على الطَّعام الشَّهيِّ، بل حتّى الصِّحاف نفسها أصبحت مصدرًا للزّينة والمتعة؛ إذ يتلألأ الذَّهب أمام الأعين، فتزداد اللَّذَّة.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 349.

وفيه كسرٌ للقيود الدُّنيويَّة وتحقيق الكمال في النَّعيم، ففي الدُّنيا كان التَّزيُّن بالذَّهب محظورًا على الرِّجال، واستعمال أواني الذَّهب والفضَّة منهيٌّ عنه، أمّا في الجنَّة؛ فتُرفع هذه المحظورات، ويُعطى المؤمنون ما حُرِموا منه في الدُّنيا، وهذا من كمال الجزاء والتَّعويض عن زهدهم وتقواهم في الدُّنيا.

وفيه مقابلة النَّعيم بالعذاب في مشاهد يوم القيامة، فأواني الذَّهب في الجنَّة تُقابِل أواني الجحيم، كما في قوله تعالى عن الكفار: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: 19]، وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ [الواقعة: 54]، وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: 16]، فالصَّبُّ والشُّربُ والسُّقيا من أواني العذاب الَّتي تكون من نارٍ وقيْح، في حين أواني أهل الجنَّة من ذهبٍ فاخرٍ، فهذه المقابلة تجلّي عظمة الفارق بين الفريقين.

وفيه الاتِّساق مع سائر طقوس النَّعيم في النَّظم، جاءت هذه الآية ضمن سياقِ وصفٍ متكامِل للنَّعيم، فقد ذكر النَّظم قبلها: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، ثم ذكر بعدها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، أي: إنَّ كلَّ تفاصيل النَّعيم مصمَّمة لإبهار أهل الجنَّة وإكرامهم بأقصى درجة، فكان لابدَّ أن تكون صِحافُ الطَّعام على نفس مستوى الفخامة المطلقة.

دلالةُ حذفِ وصف الأكواب:

إبـرازُ النَّعيم في جزء، وطيّه عن جـزء، يـزيـد من تـعـلُّـق النَّـفْس وتطلُّعها إليه

لم يقل في السّياق الكريم: (وأكواب من ذهب)، بل حذف وصف الأكواب؛ إيجازًا واكتفاء بوصف الصِّحاف قبله؛ لدلالته عليه في قوله: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، فالحذفُ لعدم التَّكرار تخفُّفًا من ثِقَلِه في النَّظم ولعدم الحاجة إليه.

وفي حذف وصف الأكواب إشارة إلى تنوُّع النَّعيم دون التَّقيُّد بتفاصيل موحَّدة، فالأكواب ليست كلُّها من ذهبٍ فقط، بل ربَّما

توجد أنواع أخرى من الفضَّة أو غيرها من الموادِّ النَّفيسة، كما في قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۝١٥﴾ [الإنسان: 15]، فالحذف يدلُّ على أنَّ نعيم الجنَّة متنوِّع ومتعدِّد، لا يتقيَّد بنمطٍ واحد، فقد تختلف الأكواب عن الصِّحاف في مادَّتها، ثمَّ يأتي الحذف لمادَّتها؛ إيماءً إلى هذا التَّباين، وتحقيقًا لعنصر المفاجأة والتَّشويق إلى اكتشاف كنهها.

دلالةُ توجيهِ القراءات في: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾:

قرأ المدنيّان وابن عامر وحفص ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكَّر بعد الياء، وكذلك هو في المصاحف المدنيَّة، والشّاميَّة، وقرأ الباقون بحذف الهاء ﴿تَشْتَهِي﴾ بحذف الهاء، وكذلك هو في مصاحف مكَّة والعراق[1]، والفرق بين القراءتين بلاغةً أنَّ قراءة الحذف أعمُّ من قراءة الإثبات؛ لأنَّ إثباتَ العائد يجعل القصد متَّجهًا إلى الموصول، كأنَّه قال: (فيها الَّذي تشتهيه أنفسكم)، أي: تقْصِدُ إليه نفوسُكم بالاشتهاء، فالتَّصريح بإعادة الضَّمير إلى الموصول يُنشِئ في الأنفسِ القصدَ إليه نصًّا، وأمّا عند حذفِ العائد يختفي القصد إلى الموصول، وإن كان موجودًا ضِمنًا وتقديرًا، لا نَصًّا، وإطلاق الفعل على غير قصد أعمُّ من إطلاقه على قصدٍ ونيَّة، وعليه: فتعديةُ الفعل إلى المفعول (هاء الضَّمير العائدة على الموصول) ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ يعني: أنَّ ما تشتهيه الأنفس شيءٌ مُحدَّدٌ موجودٌ في الجنَّة، أي: إنَّ جميع رغبات أهل الجنَّة متحقِّقةٌ ومهيَّأةٌ لهم بالكامل، وأيضًا وجود الهاء يُشعِر بتأكيد النِّعمة وتخصيصها بأنَّها مُلبّاةٌ لهم تمامًا، فيزيد التَّشويق والرَّغبة في هذا النَّعيم.

وأمّا على قراءة حذف الهاء، أي: حذف مفعول التَّشهّي في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي ٱلْأَنفُسُ﴾؛ ففيها تعميمٌ وإطلاق، يزيد من الإيحاء بسَعة النَّعيم وتعدُّده، وأنَّه ليس محصورًا في شيء معيَّن، فالمعنى هنا أعمُّ وأوسع، ويدلُّ على مطلق الشَّهوة والرَّغبة دون تقييدٍ بمفعولٍ معيَّن، فهذه القراءة تُشير إلى أنَّ كلَّ ما يمكن أن تشتهيه الأنفس من أيِّ شيءٍ على الإطلاق موجود في الجنَّة، دون الحاجة إلى تحديده أو تعيينه أو التَّقييد به.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 370.

فـ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾ تدلُّ على تحقُّق كلِّ ما تشتهيه النَّفس بشكل خاصٍّ ومحدَّد، و﴿تَشۡتَهِي﴾ تدلُّ على أنَّ الجنَّة مليئةٌ بما تشتهيه النَّفْسُ على إطلاقه، دون حصرٍ في شيءٍ معيَّن.

في الجنَّة من صنوف النَّعيم ما تعرفه الأنفس، فتشتهيه، وما لا تعرفه، لكنَّه مُمْكِنُ الاشتهاء

والجمع بين القراءتين يعطينا صورةً أكثر شمولًا وتكاملًا، فالجنَّة فيها كلُّ ما قد يخطر في بالك من مشتهيات، وذلك على قراءة ﴿تَشۡتَهِي﴾.

وكلُّ مشتهًى هناك موجودٌ ومتحقِّقٌ لك بالفعل، وذلك على قراءة ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾، فالقراءتان تكمِّلان بعضهما: الأولى بالإثبات تؤكِّد تحقُّق المشتهيات وتخصيصها لأهل الجنَّة، والثّانية بالحذف تفتح المجال لكلِّ ما قد تشتهيه النَّفس دون تحديدٍ، بما يعكس سَعة النَّعيم وكماله في الجنَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ جمعًا:

في الجنَّةِ لكلِّ نفسٍ مُشتَهًى، ولكلِّ عينٍ لذَّة

لم يعبِّر بالمفرد، فيقال: (ما تشتهيه النَّفس، وتلذُّه العين)، لا سيَّما وأنَّه قد يقال: إنَّ استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع[1]، فيكون التَّعبير به أولى؟ والجواب: أنَّه عبَّر بالجمع؛ ليتناسب مع سياق الخطاب في النَّظم، فالنَّظم جارٍ على الجمع، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، فكأنَّه هنا يقول: (ما تشتهيه تلك الأنفس الَّتي خصَّصتها بالخطاب).

وعبَّر بالجمع أيضًا؛ ليدلَّ على أنَّ النَّعيم في الجنَّة متنوِّعٌ بقدر ما توجد أنفُس وأعيُن، وليس مجرَّد مشتهًى واحد تتشاركه كلُّ النُّفوس أو كلُّ العيون، فالتَّعبير بالمفرد (النفس) و(العين) قد يوهِم بأنَّ هناك نوعًا واحدًا من المشتهيات والملذّات يصلح لكلِّ نفْسٍ وعين، أو تشترك في اشتهائه والتذاذه كلُّ نفس وعين، في حين أنَّ الجمع يفتح المعنى على التَّنوُّع والاختلاف في المشتهيات واللَّذّات بين الأفراد.

(1) الكرماني، تحقيق الفوائد الغياثيّة في المعاني والبيان: 1/ 361.

نكتةُ إسنادِ الشَّهوة إلى النَّفس، وإسناد اللَّذَّة إلى الأعين:

في الجنَّة ترى النَّعيم، فتلتذُّ عيناك قبل أن تصل إليه يداك

إسناد الشَّهوة إلى النَّفس واللَّذَّة إلى الأعين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ لأنَّ الشَّهوة تتعلَّق بالرَّغبة الدّاخليَّة العميقة الَّتي تنبع من النَّفس، وعُلِّق الاشتهاءُ بالنَّفس؛ لكونها مصدرَ أعمقِ الرَّغبات، والشَّهوة سابقةٌ على الفِعل، فلا يُشترط فيها الاندماج والتَّفاعل، فالشَّيءُ يُشتَهى برغم الحرمان منه، وأمّا اللَّذَّة؛ فتتعلَّق باستشعار المحسوسات، فهي مُتْعةٌ فوريَّة تسري في الحِسِّ لإمتاعه، ولذا يُشترط فيها المُلابسة والتَّفاعل والاندماج حتّى تحصل، فلا لذَّة مع الحرمان، وأغلب ارتباطها بالحواسِّ؛ لأنَّها أداة التَّفاعل والاندماج مع المرغوبات، ولذا علَّقها هنا بالعين؛ لأنَّها أسرع الحواسِّ إدراكًا للَّذَّة، وأوَّل ما يُلفِت النَّظر إلى النَّعيم، وفي الإخبار عن التذاذها تنبيهٌ على أنَّ النَّعيم البصريَّ في الجنَّة بلغ غايةَ الإدهاش، وأنَّ مُطالعةَ الجمالِ فيها تحصل به في العيون لذَّةٌ عاجلة من غير مجهودٍ بأيسرِ تفاعل، وتعليقُ اللَّذَّة بالمحسوسات النّاجِزَة بالتَّفاعل والملابسة معروفٌ في نعيم الجنَّة من القرآن، فقد أخبر الله عن لذَّة التَّذوُّق للشّاربين من خمرها، فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ [الصافات: 46]، وقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: 15]، فلا لذَّةَ إلّا من طريق الحاسَّة عند ملابسة سببها.

نكتةُ تقديم شهوة النَّفس على لذَّة العَيْن:

النَّفس أوَّلًا؛ لأنَّها مركز الشَّهوات المادّيَّة والمعنويَّة

قُدِّمت شهوةُ النَّفس على لذَّة العين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ من باب تقديم الأعمِّ على الأخصِّ[1]، والمصدر على الوسيلة، فالنَّفس مركز جميع الرَّغبات، فهي الَّتي تتحكَّم في الشَّهوات الحسّيَّة (الطَّعام، الشَّراب، الزَّواج ...)،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 96، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 479، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.

وكذلك الشَّهوات المعنويَّة (الرّاحة، الأمن، السُّرور، العظَمَة، المُلك ...)، وأمّا العين؛ فهي وسيلة لإدراك الجمال، لكنَّها لا تُمثِّل كلَّ رغبات الإنسان، بل هي جزء ممّا يُسعده، فتقديم النَّفس أوَّلًا يُشير إلى شمول النَّعيم لكلِّ رغبات الإنسان، المادّيَّة والمعنويَّة، قبل الحديث عن اللَّذَّة البصريَّة، وفي تقديم الأنفس على الأعين ترتيبٌ للنَّعيم بحسب الأولويَّة والحاجة، فالإنسان في الدُّنيا، يحتاج أوَّلًا إلى إشباع جوعه وعطشه ورغباته الأساسيَّة، ويُعنى بحاجته في الرّاحة والنَّعيم، ثمَّ بعد ذلك يبحث عن الأمور الجماليَّة الَّتي تُمتِّع بصره؛ فقدَّم ما هو أولى وأهمُّ في الرُّتبة، على ما يحصل كدرجةٍ مكمِّلةٍ للنَّعيم، وهو لذَّة الأعين، أو قدَّم الباطن على الظّاهر، فالشَّهوة باطنة، تنبع من أعماق الإنسان، وهي نفْسُه، واللَّذَّة البصريَّة ظاهرة، تعتمد على الإدراك الخارجي، والتَّعبير القرآنيُّ يراعي العمق قبل السَّطح، فبدأ بما يملأ الدّاخل (النَّفس) قبل ما يُبهِج الظّاهر (العين)، وفي تقديم الأنفس على الأعين مراعاةٌ وتناسبٌ مع حال أهل الجنَّة، فأهل الجنَّة يدخلونها بعد مشقَّةِ الدُّنيا وعناء التَّكاليف، فأوَّل ما يتطلَّعون إليه هو إشباع رغباتهم العميقة الَّتي حُرموا منها في الدُّنيا، وهي جواهر النَّعيم، ثم بعد ذلك يستمتعون بجمال المحلِّ، فلا عجب أن يقدِّم ما يُلبّي الرَّغبات الجوهريَّة - شهوة النَّفس - ثمَّ يتبعه بما يزيد النَّعيمَ نعيمًا، وهو لذَّة العين.

نكتةُ الجمع بين شهوات الأنفُسِ ولذّات الأعيُنِ:

الجمع بين مشتهيات الأنفس ولذّات الأعين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نعيم الجنَّة كاملٌ لأهله، فذِكْرُ ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ يدلُّ على كلِّ أنواع النَّعيم الحسّيِّ والمعنويِّ (طعام، شراب، زواج، راحة ...)، ثم أتبعه بـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ لأنَّ الجمالَ البصريَّ يُضاعِف المتعة، ويزيد النَّعيم كمالًا، وفي الجمع بينهما مراعاةٌ لطبيعة الإنسان في رغباته ولذّاته، فالإنسان مكوَّن من جانبٍ نفسيٍّ داخليٍّ (الاشتهاء)، وجانبٍ إدراكيٍّ حسّيٍّ خارجيٍّ (اللَّذَّة البصريَّة)، والجمع بينهما يشير إلى أنَّ نعيم الجنَّة لا يُشبِع جانبًا واحدًا فقط، بل يُغطّي كلَّ حاجات الإنسان الداخليَّة والخارجيَّة، وتظهر النُّكتةُ في ذلك: أنَّ النَّفس قد تشتهي شيئًا لا يكون جميلًا للعين، والعين قد تستمتع بجمال شيءٍ لكنَّ النَّفس لا تشتهيه، أمّا في الجنة؛ فيجتمع الاشتهاء والجمال في كلِّ شيء.

كمالُ النَّعيم في الجَمْع بين المزايا لا في الاكتفاء بأحدها

الجمع بين ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّه الأعين، يستدعي صورة النَّقص في نعيم الدُّنيا، فقد يحصل الإنسان في الدُّنيا على ما يشتهيه، لكنَّه قد لا يكون جميلًا في منظره، أو قد يرى شيئًا جميلًا، لكنَّه لا يستطيع امتلاكه، أمّا في الآخرة؛ فالنَّعيم مطلقٌ وكامل؛ إذا يجتمع الاشتهاء والجمال معًا بلا نقصٍ أو حرمان، فهذا الجمع بينهما يستدعي لهم كمال عطاء الله، الَّذي عوَّضهم خيرًا عن دار الفناء والنَّقص (الدُّنيا).

نكتةُ اصطفاء ﴿ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ دون غيرها من الحواسّ:

العـينُ أسـرع الـحـواسّ في إيصال المتعةِ إلى النَّفْس

اختيار الأعين دون غيرها من الحواسِّ في هذا السّياق، في قوله: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾؛ لأنَّ في ذكْر ﴿ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ كنايةً بليغة عن كلِّ الحواسِّ الأخرى؛ لأنَّه لا يوجدُ شيءٌ يُستمتَع به إلّا والعين تدركه أوَّلًا، حتّى إنَّهم يقولون: (العين تأكل قبل الفم)، فلو قيل: (تلذُّ الأسماع) أو (تلذُّ الألسنة)؛ لكان النَّعيم مقتصرًا على السَّمع أو الذَّوق، لكنَّ العين هي المَدخَل والنّافذة لكلِّ هذه اللَّذّات، فهي أكثر الحواسِّ اتِّصالًا باللَّذَّة، وهي أسبق الحواسِّ لإدراك متعةِ النَّعيم، حتّى في الدُّنيا فاللَّذّات تبدأ بالنَّظر، فتحصل الرّاحةُ والإمتاع بالنَّظر إلى الشَّيء، قبل أن يُلمَسَ، أو يُسمَع صوتُه، ومتعة العين أكثر تأثيرًا في النَّفس من سائر الحواسِّ، فلذَّة العين تدوم أكثر من غيرها، فقد يشبع الإنسان من الطَّعام، لكنَّه لا يملُّ من رؤية الجمال، وفي الجنَّة اللَّذَّة أبديَّة، فناسب أن يُذكر ما لا يُملُّ منه أبدًا، وهو التَّمتُّع البصريُّ، والاقتصار على ﴿ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ يتناسب مع شمول النَّعيم في الجنَّة، فنعيم الجنَّة يتجاوز الحواسَّ الجزئيَّة، فهو ليس مجرَّد طعام أو رائحة أو مَلْمَس، بل هو مشهد شاملٌ من الجمال والكمال، ووظيفة ﴿ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ أن تلتقط هذا المشهد العام، فتكون أقوى حاسَّةً مُعبِّرةً عن النَّعيم الواسع الَّذي يحيط بأهل

الجنَّة، في الاقتصار على ﴿ٱلْأَعْيُنُ﴾ مراعاة؛ للإيجاز البليغ الَّذي هو من طبائع القرآن العظيم، فلو ذكر الله كلَّ الحواسِّ (تشتهيه الأنفس، وتلذُّه الأعين، وتطرب له الآذان، ويُستمتع بملمسه ...)؛ لطال السّياق، فاكتفى بما يعبِّر ضِمنًا عن كلِّ ذلك، بذِكْر الأعين الَّتي هي بريدُ سائر الحواسِّ.

بلاغةُ الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

الانتقالُ من الحكاية إلى الحقيقة ومن الخبر إلى اليقين في وصف النَّعيم

الالتفاتُ من الغيبة في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ليس مجرَّد تنويع في الأسلوب، ولذلك انتقل فيه من الفعليَّة إلى الاسميَّة في تقديم النَّعيم، فـ﴿يُطَافُ﴾ يدلُّ على الزَّمنيَّة المتجدِّدة، وأمّا ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ فهو تقريرٌ للدَّوام الأبديِّ لهذا النَّعيم، فجاء هذا الالتفات؛ ليؤكِّد أنَّ هذا النَّعيم ليس وقتًا محدودًا، بل هو مُلكٌ أبديٌّ مضمونٌ للمخاطَبين، أيضًا الالتفات هنا يحقِّق أقصى درجات التَّشويق والتَّأثير النَّفسيِّ، فالسّامع حين يسمع ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ قد يشعر أنَّ الحديث عن قومٍ آخرين، لكنَّه فجأةً يجِدُ الخطاب موجَّهًا إليه ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فيزداد تعلُّقه بالمشهد، ويشعر وكأنَّه جزء من الحدث، فهذا الالتفات يجعل وقْعَ الجملة أشدَّ تأثيرًا في النَّفس؛ إذ يتحوَّل النَّعيم من كونه مجرَّد وصفٍ لآخرين إلى وعدٍ صريح للمخاطَبين، فهذا التَّغيير المفاجئ - الالتفات - ينقُلُ المتلقّي من مقام المشاهدة، إلى مقام المشاركة، فكأنَّ السّامع كان ينظر إلى مشهدٍ بعيدٍ، ثمَّ فجأة وجد نفْسَه داخِلَه!

دلالةُ عطف جملة الفاصلة على ما قبلها:

جملة: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إمّا معطوفة على: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، فيه التفات[1]، بحسب ما سبق بيانه، وإمّا معطوفة

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.

على ما قبلها جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾[1]، ويجوز أن تكون حالًا من الضَّمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ على تقدير الالتفات[2]، وأيًّا ما كان، فالتَّذييل بهذه الجملة: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في ختام سياق النَّعيم؛ لتأكيد أنَّ النَّعيم الَّذي وُصف لا يُخشى انقطاعه، كما كان في نعيم أهل الدُّنيا، بل هو دائمٌ أبديٌّ، فيرتفع مستوى الاطمئنان في قلوب المخاطَبين، ويجعل النِّعمةَ عليهم أعظم وأكمل، والعطف هنا بجملة الخلود يعكس أسلوب التَّدرُّج البلاغيِّ في الوعد: فأوَّلًا يُذكر النَّعيم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ ... ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ ... ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، ثمَّ ثانيًا يُثبِت أنَّ هذا النَّعيم مستمرٌّ لا نهاية له، ولا يتحوَّل عنهم، وذلك بالإخبار عن خلودهم فيه، وفي هذا التَّذييل: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقويةٌ للتَّرابط بين لذَّة النَّعيم وراحة النَّفْس، فالنَّفس قد تقلق؛ إذا خشيت انقطاعَ النَّعيم، فلا تستوفيه، ولا يتمحَّض لها النَّعيم؛ لتوقُّع انقطاعه، لكن حين يقول: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يصبح النَّعيم أكثر سكينةً واطمئنانًا، إذًا العطف هنا تعميقٌ لمعنى الطُّمأنينة والسَّعادة الدّائمة.

لـذَّة النَّـعـيـم تـكـتـمِـل بيقين الخلود

دلالةُ الاسميَّة في جملة الفاصلة:

التَّعبيرُ بصيغة الاسميَّة في قوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة أنَّ خلودهم في الجنَّة أمرٌ ثابت، لا يحتمل انقطاعًا ولا تحوُّلًا، وفي التَّعبير بالضَّمير المنفصل (أنتم) مع ﴿خَٰلِدُونَ﴾ تقويةٌ لمعنى خلودهم باستحضار ذواتهم موضوعًا لهذا الخلود الحاصل، ممّا يرسِّخ في نفوسهم معنى دوام النَّعيم لهم، كأنَّه يقول: (أنتم بأنفسكم وبذواتكم مستقرّون فيها استقرار الخالِد، الَّذي لا فناء ولا انقطاع يصيبه).

الجملةُ الاسميَّة تـثـبـيـتٌ لمعنى النَّعيم الأبديّ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 239.
(2) صافي، الجدول: 13/ 106.

دلالةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على ﴿خَالِدُونَ﴾:

تـقـديـمُ ضمير الجنَّة مسارعة لـلـبـشـرى والاطمئنان

قدَّم ﴿فِيهَا﴾ على الخبر في قوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ولم يقل: (وأنتم خالدون فيها)؛ صيانةً للفاصلة، وتحقيقًا للاختصاص والتَّوكيد والحصر، فخلودهم محصورٌ في الجنَّة وحدها، كأنَّه يقول لهم: (لن تخرجوا منها، ولن تنتقلوا عنها، فهي داركم الأبديَّة)، فهذا التَّقديم يقطع احتمال التَّصرُّف أو التَّغيير أو التَّحوُّل، فيشعر السّامع بالطُّمأنينة المطلقة، وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يتناسب مع مقام التَّكريم والتَّشريف، فقدَّم ضمير الدّار (الجنَّة)، الَّتي هي المبدأ والأساس ومحلُّ إكرامهم وخلودهم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"